Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 12:2-3-4 (1977)

"مدخل لضرب الكليم"

الدكتور عبدالوهاب عزام بك

ديوان يشتمل على آراء و نظرات فى الناس جماعات و وحدانا و فى الدين والتربية والفنون والأدب و السياسة . فهو أدخل فى الفكر و الفلسفة و لكن فيه من العاطفة والخيال ما يدخله فى الشعر .

و كل حقيقة فى هذا الكون أهل أن تدخل فى الشعر، ان صبغتها عاطفة الانسان، أو صوّرها خياله . و موضوعات الشعر تتوالى من محيط دائرته الى مركزها، بعضها عند المحيط يدخل فى الشعر قليلا، و يجاور ما هو خارج الدائرة على قدر نصيب الموضوعات من العاطفة والخيال .

فالكلام فى ضرب الكليم شعر يقارب الحقائق المجردة أحيانا، و يمعن فى الشعر أحيانا و لكنه فى جملته أقرب الى المحيط منه الى المركز .

والكتاب فى جملته ضرب يفجر الماء من الحجر لا موسيقى و غناء كما قال اقبال :

كفاح شديد و ضرب سديد
فلا تبغ فى الحرب عزف الوتر

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

و من أجل هذا سماه ضرب الكليم، رمزا الى قصة موسى حين ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا .

فلعل القارئ يقدر حقائقه فى معرض من الشعر شفاف أكثر مما يلتمس فيه خيال الشعر وزينته و بهجته . و لعله كذلك يقدر عناء المنشئ والمترجم فى عرض هذه الحقائق والإبانة عنها فى أسلوب من الشعر الرصين .

قسم الشاعر ديوان ضرب الكليم على ستة فصول . و قدم قبلها قطعتين و قصيدة، القطعة الأولى أبيات قدم بها الديوان الى أمير بهوبال حميد الله خان، والثانية يخاطب فيها القراء . والقصيدة سماها تمهيدا .

و هذه فصول الديوان :

١ - الاسلام والمسلمون، (و هو أطول الفصول)

٢ - التعليم والتربية .

٣ - المرأة .

٤ - آداب الفنون الجميلة، (وهو ثانى الفصول طولا)

٥ - سياسيات المشرق والمغرب .

٦ - أفكار محراب جل الافغانى .

و هذه الفصول مؤلفة من قطع صغيرة بين بيتين و عشرة لا تتجاوز العشرة الا قليلا .

و الفصل الأخير منظومة واحدة مقسمة عشرين قسما تختلف أقسامها أوزانا و قوافى ولكن الشاعر جعلها منظومة واحدة وربط بين أقسامها باعداد متوالية .

و القطع فى الفصول كلها، ان عددنا أقسام الفصل الأخير، مائتان و اثنتان . و فى المقدمة أربع قطع .

فلسفة اقبال

لابد من كلمة موجزة فى فلسفة اقبال تعين القارئ على ادراك مرامى الشاعر .

أساس فلسفة اقبال ماسماه (خودى) (الذات أو الذاتية) و قد بين مذهبه هذا فى كثير من شعر و خص به منظومة سماها أسرار خودى .

و خلاصة هذه الفلسفة، وما بنى عليها، وما يتصل بها من آراء :

(أ) أن الذاتية جوهر الكون و أساس نظامه، و سر الحياة فيه .

(ب) وأن الذاتية هذه تحيا من تخليق المقاصد، و توليد الآمال . كما يقول اقبال : ''نحن أحياء بتخليق المقاصد و نحن منيرون من شعاع الأمل،، .

(ج) و أن الذات تقوى بعشق ما تؤمل، وسعيها اليه غير متوانية واقدامها عليه غير هيابة و اقتحامها كل عقبه فى سبيله كمال، قال : ''وهى بالمحبة أقوى، وأحيا وأضوأ،، .

(د) والجهاد الدائم، والكفاح المتصل تقوى به الحياة و تزداد و تنير . والأحجام، والتردد والسكون الى الدعة والخضوع تضعف الحياة و تطفئها .

(ه) و على الانسان أن يستخرج كل ما فى فطرته من مواهب، وأن يعتمد على نفسه، و يظهر ذاته فى قوله و فعله، و يحذر التقليد والاعتماد على غيره، و طلب ما عند الناس، و الغفلة عما فى نفسه من كنوز .

(و) بهذا كله تقوى الذات، وقوة الذات هى مقصد هذه الحياة . والشاعر معجب بالقوة فى كل شئ، القوة الحسية، والقوة المعنوية . وهو بهذا يعجب بالفيلسوف الألمانى نيتشه و يذكره كثيرا ولكنه ياخذ عليه أنه عرف العقل لا القلب، والجسم لا الروح، والعلم لاالعشق و يقول عنه لم يكن أهلا لنكتة التوحيد، و أنه آمن عقله و كفر قلبه، وأنه بنى موثنا على أسس مسجد .

بل القوة عند اقبال من عناصر الجمال، فان الجمال لايكون بغير جلال . يقول فى القطعة التى عنوانها ''الجلال و الجمال،، :

عندى جمال فى بهاء أن ترى

فـــى سجدة للقوة الأفلاك

و لنغمة من دون نار نفخة

ســا الحسن الا بـالجلال يحاك

بل يقول فى هذه القطعة انه لا يحب أن يعذب بنار غير قوية :

لا أرتضى نار الجزاء ولم تكن

و هاجة و لهيبها دراك

(ز) والحسن والقبح أو الخير والشر من علو الذات وانحطاطها وقوتها وضعفها :

عالم الذات به علو وسفل

وبه معرك قبح و جمال

فى اعتلاء الذات ما يبدو جميل

و قبيح ما بدا فى الاستفال

(ح) والذات المفردة القوية الناضجة تنسلك فى الجماعة، ولا تفنى فيها . و قد بين اقبال فى ديوانه أسرار خودى كيف يلتئم الواحد القوى فى جماعته و كيف يسعد بهذا الالتئام و يبقى ولا يفنى . ومن اشاراته فى هذا :

ياسن فى القافلة سر رفيقا وكن وحيدا .

و يقول فى ضرب الكليم فى القطعة التى عنوانها الرجل العظيم :

هو فى المجمع خال و من الحشد طليق

مثل شمع الحفل، فى الحفل وحيد و رفيق

(ط) والانسان أعظم الكائنات، و كل شئ فى العالم مسخرله كما فى القرآن الكريم :

(''لقد كرمنا بنى آدم و حملنا هم فى البر و البحر ورزقناهم من الطيبات و فضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا،،) (١)

(''و سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه،،) (٢).

(''وسخر لكم الأنهار و سخر لكم الشمس و القمر دائبين و سخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ماسألتموه . وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها،،) (٣).

(ى) والانسان حر غير مجبر، و مخير غير مسير . عزمه دليل على القضاء أو مشير عليه . والمؤمن الحر هو مقياس الصلاح والفساد والبقاء والفناء فى هذه

---

(١) بنى اسرائيل : ٧٠ (٢) الجاثيه : ١٣ (٣) ابراهيم : ٣٢-٣٤ .

الدنيا بل فى الدنيا والآخرة :

فيه عزم على القضاء مشير
و هو فى العالمين كالميزان

النبات والجماد فى قهر الطبيعة و لكن المؤمن الحر لا يقيده الا اطاعته أحكام ربه :

ان النبات وان الجامدات لها
من القضاء قيود ذات احكام
والمومن الحر لا شئ يقيده
لكن لخالقه فى قيد أحكام

ك — الحضارة الحديثه

و يروى اقبال أن الحضارة الأوربية مادية، لا روح لها ولا قلب ويشتد فى نقدها، و يذكر فلاسفتها فيقبل من آرائهم قليلا و يرد كثيرا و يرى أن فى الا سلام و حضارته سعادة البشرة والتأليف بينهم، و جمعهم على شرعة الحق أخوة متحابين متعاونين .

ل — فلسفته فى هذا الديوان

تتجلى فلسفة اقبال، فى الذات وما يتصل بها ونظره الى الحضارتين الاسلامية والأوربية وسائر آرائه، فى كل فصول هذا الديوان، حتى الأدب والفنون الجميلة .

الشعر فيه من الحياة رسالة
أبدية لا تقبل التبديلا

ان كان من جبريل فيه نغمة

أو كان فيه صور اسرافيلا

— صمت طير الصبح أولى من غناء

ان سرى فى الروض باللحن ذبول

و الغناء ان أدى الى ضعف أو خورفهو حرام :

ان سرت فى اللحون دعوة موت

حرم النـاى عندنا والرباب

والمصور ينبغى أن يصور الحياة وأن يطبع ذاته على الطبيعة لا أن يحاكيها :

مقصد الفن فى الحياة لهيب

أبدى فما و ميض الشرار؟

يا خبيرا بفنه فيه تمت

صنعة العصر والعصور الخوالى

كم ترى من طبيعة و تريها

أرنا الذات فوق هذى المجالى

تفسير اصطلاحات فى الديوان

الفقر

يشيد اقبال بالفقر فى مواضع كثيرة من شعره فى هذا الديوان و فى غيره، و يعده مفتاح كل خير والوسيلة الى كل سؤدد، والمقتحم كل عقبة .

و من الأبيات التى ذكر فيها الفقر فى هذا الديوان :

فى القطعة : ''على ذكر الاذن يحمل السيف،، .

أيـهـا الـمـسلم تدرى اليوم ما
قيمة الفولاذ و العضب الذكر

هو سصراع سن البيت الذى
سضمر فيه سن التوحيد سر

وأرى سـصراعه الثانى فى
سيف فقر تحتويه كف حر

وقوله، فى القطعة ''الفقر والملكية،، :

الفقر يـمضـى بـلا سـلاح
فى حومة الحرب كالرجوم

و قوله، فى قطعة ''السلطان،، :

تعلم فألف سقام و شان
لفقر بدا فيه روح القرآن

و قوله، فى قطعة ''الامامة،، :

يمر عليك من فقر سسنا
فيطبع منك سيفا للمنايا

و قوله، فى القطعة ''نكتة التوحيد،، :

أى سلك سقام فقر، ولكن

تؤثر الذل مذعنا، ما احتيالى

و قوله، فى القطعة التى أولها : ''متاعك فى الحياة فنون علم،، :

وما ان ذل قوم قد أعدوا

حماس العشق و الفقر الغيور

و يتبين من التأمل فى هذه الأبيات أن الفقر فى لغة اقبال ليس عدم المال أو قلته، ولا هو حاجة الى ما يعيش به الانسان و يعتز به من متاع الدنيا . فما ذا يعنى اقبال حين يذكر الفقر و يشيد به و يبالغ فى أكباره ؟ الذى أدركته من كلام الشاعر أن الفقر الذى يعنيه هو خلاص النفس من قيد التملك أو الطمع، و سضيها عاملة مقدسة لا يطغيها وجدان ولا يذلها حرمان . وربما يملك الفقير قناطير من الذهب وربما يكون ملكا مسلطا لا يعجز سلطانه مال أومتاع .

و ليس هذا المعنى بعيدا عما فسر به بعض الصوفية الفقر .

ففى رسالة القشيرى :

سئل يحيى بن معاذ عن الفقر، فقال : ''حقيقته ألا يستغنى الا بالله،،.

و قال الشبلى : ''أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فانفقها فى يوم ثم خطر له أن لو أمسك منها قوت يوم ما صدق فى فقره،، .

و فى الرسالة أيضا : ''وقيل صحة الفقر ألا يستغنى الفقير فى فقره بشئ الا بمن اليه فقره،،

و فى كتاب عوارف المعارف للسهروردى : ''و قال الكتانى : اذا صح

الافتقار الى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى . لأنهما حالان لا يتم أحدهما الا بالآخر،، .

فترى أن الفقر فى هذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المال، و لكن ألا ير تبط الانسان بما أدرك أو بما فات . أعنى ألا تكون الدنيا فى قلبه وان كانت فى يده .

قلندر

يعنى به اقبال الانسان الذى لا يصل نفسه بمال ولا أهل ولادار .

وهو فى الأصل اسم رجل ذهب هذا المذهب و أحدث طريقة كان سالكوها يديمون السفر لا يلبثون فى مكان، ولا يقيدهم ملك ولا أهل ولا وطن . و يحلقون رؤوسهم ولحاهم .

وسمى سالك هذه الطريقة قلندراً باسم صاحب الطريقة .

وقد رأيت أن أبقى اللفظ فى الترجمة لأنه علم فى الأصل و جعلته أحيانا و صفا و أحيانا نسبت اليه فقلت : القلندر والقلندرى .

الجنون

يكرر الشاعر ذكر الجنون فى هذا الديوان، ففى القطعة التى أولها :

الى عصبات العرب ما أنا منتم

ولا أنا هندى ولا أنا أعجمى

يقول :

فلست أرى فى بيدك اليوم جنة

تشب بهذا العقل نار التقدم

و فى القطعة التى أولها :

''متاعك فى الحياة فنون علم،، يقول :

و سرقت الجيوب و أنت خال

جنونى — لا ألومك — فى قصور

و فى القطعة، ''يا شيخ الحرم،، :

فى جنونى لك أسرار بدت

فاجزنى يا شيخ عن هذا اللمم

و فى القطعة التى عنوانها ''المدرسة،، :

أبعد الدرس عن حماك جنونا

قال للعقل : لا تلذ بنقاش

و فى القطعة ''فلسفة،، :

ان فى حلقة المجانين عقلا

فى شرار يرى لهيبا سضيا

و ظاهر أن اقبالا يعنى بهذا الجنون الحماس والاقدام وأداء الواجب دون تردد، و فى غير حساب للمشقة والربح والخسارة، فهو قريب من العشق الذى يذكر فى مقابلة العقل .

و كأنه يقول ان هذا الاقدام يعده الناس جنونا، و نحن نحب هذا الجنون.